كيف يدعمون الصناعة بعلم النفس

بقلم

كمال دسوقى

مدرس الفلسفة بمدرسة المنصورة الثانوية

إلى المعنيين بشئون الصناعة فى مصر ؛ من ممولين ومديرين وأصحاب أعمال ؛ العاملين على الأخذ فى ترقيتها بأحدث أساليب التقدم العلمى؛ نقدم هذا النموذج التطبيقى الحى لما يأخذ به الفرنسيون فى هذا السبيل ؛ لمناسبة المعرض الزراعى الصناعى المصرى الجارى .

وقفت أخيراً على كتاب لعله يمثل أحدث اتجاهات علم النفس الصناعى فى فرنسا مما ظهر بعد الحرب . ومؤلفة هذا الكتاب تقوم حولها ضجة كبيرة، ويعلقون على كتبها — وخصوصاً : رسالة فرنسا La Mission de la France الذى توجته أكاديمية العلوم السياسية والأخلاقية (١٩٤٦) — أهمية كبرى ؛ حتى ليذهب الناقدون والمعلقون الفرنسيون إلى المبالغة فى تقدير أثره ؛ قائلين «إنه يعرض الحل الحيوى الطبيعى الذى سيهيئ لبلادهم — إبان دستورها الجديد — أن تخرج من الفوضى والتخبط والاضطراب » ، وأن صاحبته « تقدم الخيط الموصل الذى يفتح طريق الإحياء العظيم » إذ هى « تنتزع من تجاربها — كعالم نفسى — المبادىء الأساسية للحياة بكل وضوح ؛ مبينة كيف يمكن أن تنقل إلى العمل بوجه عام لكى تمنحه الدفعة الخلاقة ».

أما المؤلفة فهى ليون بورديل Léone Bourdel صاحبة معامل علم النفسى التطبيقى المسماة باسمها فى باريس ، لانعرف عنها من كتاباتها وآراء غيرها فيها أكثر من هذا ؛ وأما الكتاب فهو : معرفة الإنسان عن طريق السيكوبيولوچيا La Connaissance des Hommes par la Psychobiologie وهو فى قسمين : أولهما يعرض لتطبيق هذا العلم الجديد (السيكوبيولوچيا) فى أعمال

المشروعات والمنشآت ، والآخر يتناول بالتعريف تصنيف الميول والقدرات الإنسانية استناداً إلى النتائج التى انتهت إليها تجارب بورديل فى معملها المذكور . والكتاب ظاهر الطرافة والجدة والتحليل مع الإيجاز العلمى والوضوح ، ظهر ضمن منشورات ميديسيس Edition Medicis فى باريس ، إبريل ١٩٤٦ .

وأهم ما فى هذا الكتاب حماسته البالغة للاستفادة بتعرف قوى الإنسان فى السيطرة على الآلة والعمل ، فإن بورديل تعلن أن الإنسان لا يستطيع بعد أن يظل عبداً للاقتصاد ، بل يجب أن يكون الاقتصاد خادماً له ، وأن الإنسان — وهى تكتبها دائماً بحروف كبيرة Homme — إذا كان قد أتى عليه حين من الدهر نسى فيه نفسه وتركها تنقاد ، دون وعى منه أو تفكير ؛ وراء الميكانيكا التى أسكره اكتشافها منذ قرنين — فإنه قد آن له أن يفكر فى العالم وينظمه بمقتضاه هو — لا الميكانيكا ، وأن تكون يقظته لاسترجاع سيطرته على الآلة وعلى العمل والاقتصاد ثورة قوية حاسمة تكون أداتها وباعثها الحكومة ذاتها . فلما كان الوضع الطبيعى للحكومة ألا تفعل ذلك فى جد وعجلة ؛ فإنها ترى من أول واجباتها أن تعمل على إعادة تنظيمها ، لأن هذا المبدأ الذى تدعو إليه يجب أن يؤخذ به فى سنوات قليلة مقبلة ؛ إن لم يكن لإحداث الثورة الاجتماعية المرتقبة ؛ فلمجرد الإبقاء على الإنسان .

والثورة التى تعنى بورديل ليست الثورة بمعناها المألوف ، «ليست بركة من الدماء كما أنها ليست طبقاً من القشدة ؛ إنها الثورة التى لاتعرف الانتقام ولا الحقد ولا الكراهية ؛ بل تلك التى لا تحطم شيئاً ولاتأتى على شىء ، إنما تأتى إلى العالم بشىء ، وتلك هى الثورة الحقيقية » — كما تقول — إنها الثورة على الإنسان نفسه الذى نسى نفسه وعبد الآلة . . .

وحق لبورديل أن تثور ، فكلما تلفتت حواليها فى العمل والعلم جميعاً وجدت هذه الفكرة الميكانيكية الآلية مسيطرة : أما فى العمل فإن رؤساء الأعمال والمشروعات لا يحسبون إلاحساب ما تنتجه الآلة الجامدة وما تدر من فائدة ؛ جاعلين لها المكان الأول ، ولا يقتصر ذلك على الصناعة وحدها ، بل يمتد إلى الوظائف فى المصالح والإدارات . وأما فى العلوم ؛ فإن علم النفس الذى هو علم الإنسان ذاته ؛ علم الإنسان كنفس ، قد انتهى إلى أن يتنكب موضوعه الخاص به — أعنى شخص الإنسان الحقيقى personalité profonde ، أو نفسه âme ، وذاته psyché — ليتناول

الإنسان فى مجرد هيئته الخارجية . ومنذ أن فتح لاڤوازييه — وماتييه Matthieu من بعده — الطريق لتقدير العمل بكمية الأوكسجين التى تستنفد طوال المجهود الذى يبذل ، وتبعهما الفيزيولوچيون وعلماء النفس التجريبى والمقارن والسلوكيون وعلماء النفس الصناعى والموضوعى حيث كان يدرس الإنسان من حيث انتباهه وإدراكه وألوان ذاكرته وسلوكه وأفعاله المنعكسة ... منذ ذلك الحين نسى الإنسان نفسه كإنسان Homme ، نسى أذواقه الباطنة ، وأنفاسه ، وإحساسه بالمسئوليات ، ورغبته فى التحسن ، وشعوره بالسيطرة ، والإرادة .

فلما أن سار البحث فى علوم الإنسان على هذا النحو المادى لم يكن لينتهى إلا إلى نتائج جزئية ومنحازة . ولما أن كانت محاولة تطبيق هذه المناهج الجديدة فى سيكولوچيا القرنين التاسع عشر والعشرين على العمل الإنسانى ؛ فقد وقع ثمة خطأ خطير : وهو أن الإنسان لم يكن يقاس إلا بقدراته aptitudes لاقط بميوله tendances ، وهكذا لم تستطع تجارب علم النفس الصناعى أن تقدم نتائج ذات قيمة إلا فى المهن التى للقدرات البدنية والحركية والحسية فيها المكان الأول ؛ كسائقى الترام والسيارات العامة والكتبة على الآلة ...إلخ . أما تطبيق اختبارات علم النفس الصناعى هذه فى الميادين العقلية الأكثر فلم يكن موضع ثقة كبيرة ، ورفضت الخاصة من المربين ورؤساء الأعمال والمديرين والمتنورين من الآباء أن تضع أبناءها تحت رحمة هذه الاختبارات تحدد صلاحيتهم أو عدمها لما يختبرون من أجله ، أو أن يختبروا أنفسهم أو مساعديهم بها . وحق لهم ألا يثقوا : فإن علم النفس الصناعى كان يسمح فعلا بتعرف المستوى العقلى والاتساع الفكرى ونوع ذكاء الشخص ؛ أما شخصيته الباطنة العميقة وكل ما له من قيمة أدبية ومزاج وصفات مميزة فقد ظلت مجهولة كل الجهل .

وفى ذلك الحين ، كان علم النفس الاستبطانى القديم يستعيد مكانه منذ سنوات بفضل التحليل النفسى ، ولكنه كان قاصراً خصوصاً على مستشفيات الأمراض العقلية أو فى عيادات الأطباء الخاصة به من ناحية ، وعلى دراسة الماضى والمصابين بأمراض عصابية ، من ناحية أخرى . فلما اتسع كانت مبادئه تطبق على الأصحاء من الناس كما تطبق على المرضى ، وعلى الأطفال كما على البالغين ؛ وكان يكفى إيجاد مناهج بحث عملية تسمح بسرعة الوقوف — فى ظروف مرضية — على عناصر ماتحت الشعور .

فما هى إذن هذه السيكوبيولوچيا التى تدعى أنها أكثر من كل هذه العلوم قدرة على تعرف الإنسان ؟ إنها — كما تقول بورديل — مركب هذه العلوم التى يهيئها علم النفس ليتعرف بها الإنسان فى مجموعه الحيوى ، أى الإنسان لا ، فى قطاع منه فحسب — بل فى تطوره ، وفى وظيفة تكيفه بالحياة ، وفى مركب نظامه ؛ كل ذلك فى البيئة والوسط الذى يشكله ، ويبقى بعد هذا ميدان المعمل ، لربط مناهج البحث هذه بضبط صحتها ، ولكن ما حاجة السيكوبيولوچيا إلى المعمل ، وهى قد خرجت منه إلى حيز التطبيق العملى الأوسع ؛ إلى التوجيه المدرسى والمهنى للأطفال والصبيان ، وإلى اختيار العمال والموظفين والبائعين وتعيينهم وترقيتهم ؛ فى إطارات فنية وإدارية عليا قاطعة وحاسمة ؟ إنها — منذ تطبيقاتها الأولى على مختلف فروع التجارة والصناعة — قد نجحت اختباراتها ومسابقاتها ؛ وقفت الاختبارات والمسابقات الأخرى عاجزة ؛ لأنها — بدلا من أن تنشد مهارة الطالب وقدرته العقلية وذاكرته ، مما هو رياضى ولفظى — قد استطاعت أن تعرف إلى جانب قدراته العقلية شخصيته الباطنة العميقة ، وميوله الخاصة الرئيسية ، ومزايا شخصه ، ودوافع فعله ، ومدى توزع إمكانيات كفايته .

ولما كانت السيكوبيولوچيا لاتغفل أعمق الأشياء صلة بالإنسان ، فقد كان طبيعياً أن تبدأ بدراسة طريقته الخاصة فى التكيف بالحياة ؛ وهو ما تسميه بورديل بالعرض البيولوجى L'Indice Biologique الذى يتطلب الحياة البدنية والنفسية معاً . وهذا العرض يتمثل فى المزاج فى علاقته بالمجموعه الدموية Groupe Sanguin والمزاج الذى تعرفه بورديل بأنه : الاستعداد السابق « الجوهرى » العميق الذى يحدد طريقة تكيف الكائن بالحياة ينقسم عندها إلى ثلاثة أنماط كبيرة — يتكون من مجموعها رابع — للكائن فى تفاعله بالبيئة ؛ هذه الأنماط هى : التوافقى L'Harmonique واللحنى Le Mélodique والإيقاعى Le Rythmique وأخيراً التوافقى اللحنى الإيقاعى L'Harmonique-Mélodique-Rythmique .

وتشرع بورديل فى وصف كل نمط من من هذه الأنماط بمختلف أوصافه ومميزاته ، على نحو ما يتحدث الفيزيولوچيون أو المنجمون عن الأخلاط الدموية الأربعة وتأثيرها وصفات أصحابها ، أو على نحو ما تكلم يونج عن أنماط أشخاصه : المنبسط منها والمنطوى ، والذى يجمع بين الانطواء والانبساط — تعرض

ذلك فى أسلوب يعج بمصطلح الموسيقى ؛ ويصرخ بروح الفن الذى شاء لها أن تذهب هذا المذهب فى وصف أشخاصها .

فالتوافقى عندها هو هذا الذى يحس بما حوله من الكائنات والموجودات فى دويها ورنينها ، والذى يحدث — باهتزازه على عدد كبير من المفاتيح الصوتية claviers فى وقت بعينه — رنيناً من كل متوافق فى عناصرها . ومن هنا كان خصب هذا النوع وأصالته وعمق استجاباته فى شتى نواحيها : الجسمية والحسية والعاطفية والعقلية والإبداعية . ولا يستطيع هذا النوع التوافقى أن يتفتح بكل حريته أو يحقق كامل وجوده إلا إذا كان فى توافق مع البيئة التى يخالطها ، فإذا عاقه شىء لاتوافقى ؛ فهنا يحس بأنه يذبل وينطفئ ويزول . وخير مثال لهذا النوع من الأشخاص : الفنان فى حالى نشاطه وتفانيه وإبداعه ، أو أظلامه وغموضه وحياده ، فإن سيكولوجية هذا النمط أن الميول التى توجههم إنما تتفتح إلى أقصى غايات التفتح حيث تكون بيئاتهم متوافقه ، وتتلاشى أو تكف عن الظهور منذ أن يطرأ على هذه البيئات تغير فى نسقها وانسجامها .

أما اللحنى فهو الذى يحس — ويحيا حياته ذاتها — كلحن ينبعث ؛ يقرن هو بشدة وإخلاص حنياته المتعاقبة ، ويزاوج بين ثنياته المتتابعة . وهذا النوع سرعان ما يتكيف بالناس والظروف والأشياء ، ويتكامل فى لين ومرونة بالبيئة المباشرة باندماجه مع غيره وتحويل غيره إليه.ومثال ذلك التاجر الناجح . ومنه يتبين طابع النمط اللحنى : النفعية العاجلة اليسيرة مع قليل من الأصالة المميزة . ليس لهم فى ذاتهم هذه المرونة مستقلة ، ومن أجل هذا يحاولون دائماً الاختلاط بغيرهم الذى هو دافع ساوكهم ونشاطهم ، وحين يتملكون الدافع يحسنون استخدامه والانتفاع به ، وهم أكثر الناس قدرة بالفعل على الاندماج فى الغير ، فهم دافع الحركة والعمل فى بيئاتهم — يخلقونهما فيها — لا على نحو ما يظن التوافقيون بالبيئة أنها العلة المهيئة لخصبهم أو عمقهم كما بينا ؛ بل البيئة عند هؤلاء اللحنيين علة أولية قابلة لكثير من التحوير والتبديل ؛ مما يفسر ميلهم إلى التكيف الاجماعى باصطناع الأدب والمجاملة والدبلوماسية وذوق الحديث والعرض .

وأما الإيقاعى فهو الذى لايحس بعناصر خبرته ذاتها إلا بمقتضى وقوعها لديه ، ولا يستطيع أن يفعل الا بمقتضى هذا الوقوع (الإيقاع rythme) . فهو لايستطيع إذن أن يفعل إلا مافهمه هو أو أدركه أو قرره إما من تلقاء ذاته أو نتيجة استدلالات.

وهو لا يتكيف بالعالم الخارجى ، ولا يحاول فوق هذا أن يكون معه فى توافق وانسجام ، هو يأخذ طريقه لا يتحول عنه ؛ منكرا الأحداث والعقبات ؛ محاولا تحقيق وجهة نظره هو . ومزاجه وسلوكه جديان صارمان ، تنقصه المرونة وخفض الجناح ؛ النظام عنده مقدس ، والشعار الذى يرسمه أو يصطنعه مرة لا يحيد عنه ؛ ومثال ذلك النمط العسكرى . ويتهم هذا النمط غالباً بأنه مجرد من الذوق tact وبسوء التصرف وصعوبة المراس وقلة الفهم وشدة العناد ، ذلك أن طبيعتهم وحساسيتهم لا يتسرب إليها الاختلال (عدم التوازن) أو الوهن ، وأنهم لا يقيمون وزناً لما يستطيع أن يفعله الآخرون ؛ بل هم الذين يدمغون أفعال غيرهم بالخطأ ويحكمون فيها ؛ والحق عندهم ما يرونه هم . وفى حالة هؤلاء يبدو أن الكائن العضوى هو الذى يفرض التغلب على البيئة ، وأشخاص هذا النوع عموما أكثر الناس كمالا ونقاء وفردية ، وأكثرهم تشابهاً فيما بينهم .

هذه الأنماط الثلاثة قلما توجد فى حالة تجرد ، ويندر أن نصادف — من الناحية العملية — نمطاً فى أى كائن إنسانى يقوم وحده ، بل غالباً ما يوجد نمطان أو أكثر ، يغلب أحدهما ويبقى الآخر ثانوياً ؛ بنسب متغيرة من النفوذ والاتساع بينهما .

أما التوافقيون اللحنيون الإيقاعيون من الناس — وهو رابع هذه الأمزجة ومركبها — فهم أولئك الذين تتعاون عندهم هذه الثلاثة الأمزجة فى وجودها ؛ وهو نمط تتجمع فيه خصائص كل منها متفردة . ومن ناحية أخرى فهو يجعل من أصحابه أشخاصاً قلقين تعتريهم شدة الوساوس الدائمة والشكوك المستمرة ، وهوائيين velléitaire لهم من قوة الآلام وشدتها بقدر ما لشخصيتهم من توزع فى هذه الاتجاهات المتعارضة الكثيرة . فهم دائماً هدف للميول المتعارضة والأهواء المتناقضة ؛ التى تشعرهم بما حولهم من الموجودات فى رتبها العاطفية حيناً (توافقى) ، وتحملهم على التكيف بأى وسط كان حيناً آخر (لحنى) ، وعلى الانتصار لوجهة نظرهم فيه حينا ثالثاً (إيقاعى) مع الإشفاق من أن يضايق ذلك البعض أو يكلفهم عناء (توافقى) ، ودون رغبة فى التنازل عن شىء مما هو من حقهم (إيقاعى) ، كل ذلك مع شعور بأن الوقت يمر ، وأنه يضيع عليهم ، ويفوت ضياعه فرصاً (لحنى) ...الخ . هذا القلق والتردد هو الذى يتأدى ببعض أصحاب هذا النمط إلى التفكير فى الانتحار والشروع فيه ، وذلك لا يمنع أن نجد من بين هؤلاء فى كثير من الأحيان أكثر الناس ميلا للمحبة والإخلاص التلقائى الشديد .

وترى بورديل أن مرض هؤلاء —وهى تعرض بعد الحديث عن خصائص كل من أنماطها مرضه وطريقة علاجه— مرض هؤلاء أن التفاعل بين الكائن والبيئة organisme × milieu هو من التعقيد والعسر وندرة الإمكان حتى لا يحاولونه ولا يريدون تعلمه . وعلاجهم الأوحد عندها أن تعلمهم طريقة حل هذه الأمزجة الثلاثة واستخدامها مفردة بالتتابع لا فى وقت معاً ؛ ليكونوا مثلا توافقيين فى داخلية نفوسهم ، ولحنيين فى صلات أعمالهم ومهنتهم ، ثم إيقاعيين فى أحكامهم وقراراتهم .

هذه الأنماط الرئيسية التى كشفت عنها سنة ١٩٣٨ الاختبارات السيكولوجية والتحليلية النفسية لأشخاص كثيرين مدة تتراوح بين ثلاثة شهور وخمس سنوات تبدو لبورديل ثابتة وقوية ؛ ولكنها فحسب تتبع قوانين التطور التى من شأنهاأن تجعل مقدار التوافقى يقل مع السن ، ومقدار الإيقاعى يزيد ، ومقدار اللحنى تتغير كميته وفق عوامل معينة لا ترى بورديل داعياً للدخول فى تفاصيلها ؛ وأن أحداثاً عرضية — عرضية تماماً — هى التى تستطيع أن تحدث تغييرات حقيقية فى انطباق هذه القوانين ؛ تقول إنها لم تلاحظ منها إلا وحدات قليلة بين أكثر من ثلاثين ألف شخص .

وأخيراً انتهت فى نهاية ١٩٤٣—بمحاولة تحديد المجموعات الدموية للأشخاص الذين أجرت اختبارهم بالسيكوبيولوجيا — إلى استخلاص القوانين الآتية :

(١) كل شخص يتبع المجموعة ا له مزاج مبدئى توافقى .

(٢) كل شخص يتبع المجموعة الدموية ب يغلب عليه منذ البدء المزاج الإيقاعى.

(٣) كل شخص يتبع المجموعة الدموية و يغلب عليه مبدئياً المزاج اللحنى .

(٤) وكل شخص يتبع المجموعة الدموية اب له مزاج مثلث توافقى لحنى إيقاعى .

وقد ظهرت صحة انطباق هذه القوانين فيما تقول — على جميع الأشخاص الذين أجرى اختبارهم بالطريقة العادية السابقة لتحديد المزاج الدموى ، وإن لم توضع لها هذه التسميات إلا فى نهاية ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ . وتظهر طرافتها كذلك من أن الخليط الدموى « و « المتعلق بالمزاج اللحنى قد ظهر أنه بالتحديد خليط دموى عالمى يمثل التكيف بالأخلاط الأخرى دون صدمة فيزيولوجية ، وأنه يصلح بالتالى رمزاً

للمزاج اللحنى الذى هو مزاج التكيف من الطراز الأول ، كما أيدت الاختبارات صدمات المزاج التوافقى اللحنى الإيقاعى (ف ل ق) فى الخليط الدموى اب من حيث كونه قابلا عاماً (مزاجاً ذا حساسية متنوعة) ولكنه لا يستطيع فى مقابل هذا أن يعطى مزاجه لأحد (أى — كما قلنا — هوائى velléitaire) .

والعرض البيولوجى بهذا — وكما يبدو بعد أن أثبتت التجارب صحة نتائجه — يمكن الاعتماد عليه فى إعطاء مفتاح الشخصية الأول . فلما كانت المجموعة الدموية للشخص لا تتغير مطلقاً فى مجرى حياته حتى ولو كان الدم ينقل ويفرغ عدة مرات ومهما تكن طبيعة هذا الدم وكميته ؛ فإن تحديد مزاجه المتصل بهذه المجموعة الدموية يظل ثابتاً ؛ فيوجد مزاج رئيسى وجوهرى تقوم حوله فى ميدان الشخصية أمزجة أخرى ثانوية مكتسبة .

* * *

وبعد العرض البيولوجى بأخلاطه وأمزجته يأتى المحرك Le moteur ويقوم فى الطبع le caractère والميول المنطبعة فى الإنسان ، والإنسان هنا من التعقيد ككائن بحيث يصعب اكتشافه من طريق واحد ،وبورديل تعيب هنا على الذين بدءوا فيه مما هو حسى فيزيقى للوصول إلى ما هو عقلى ، والذين سلكوا طريقاً عكسياً ؛ قائلة إن كلا الفريقين يجعل من نقطة البدء علة لنقطة الانتهاء ، أى يجعل النتيجة معلولة بالمبدأ — حيث لا يوجد فى الحقيقة إلا تصاحب وتلازم — مما نشأ عنه كثير من المشاكل والمنازعات .

إنما تتلخص المسألة عندها فى أننا إذا قارنا الإنسان بالآلة ؛ فإننا نقرر أنه مركب من أدوات متغيرة جسمية بقدر ما هى عقلية ، ومن محرك يحرك — أو يوقف عن الحركة — هذه الأدوات المختلفة . هذا المحرك هو المزاج ؛ تصحبه كافة الميول العميقة من أذواق ، وحيوية (نشاط) ، واستعداد ، ومنافع ، وطبائع .....إلخ . فعند بعض الأشخاص : الآلات رائعة ، كثيرة ، مهذبة ، ومعدة تماما ؛ ولكن العجز ربما كان فى المحرك (ولدينا هنا أمثلة الخائبين les ratés الذين يفشلون بسبب الطبع أو البلداء الخانعين Subalternes الذين يازمهم التحريك دائماً ليعملو اوينتجوا) ، وعند أشخاص أخرى — على العكس من ذلك — المحرك قوى جداً ، ولكن الأدوات هى التى تعطب أحياناً ، وما ضرر ذلك ؟ إن الأدوات تحل بعضها محل بعض ، وتعوض بعضها عن بعض ، والقدرات تطرقها الإرادة

الحديدية لتقوم بهذا التعويض (ولدينا هنا مثال ديموستنيس شاهداً قوياً) .

إن كل شخصية داخلية تنزع للتعبير عن نفسها رغم كل صعوبة وبفضل قوتها ، وهذه مسألة المحرك (الطبع caractère) وليست مسألة الأدوات les outils (الذكاء أو العضلات أو غيرهما) . فالأدوات ليست إلا لخدمة استعداد هذه الشخصية وإعانتها على هذا التعبير عن نفسها . والمحرك بهذا هو ذو الأهمية الأولى ؛ خصوصاً عند هؤلاء الذين تضعهم أعمالهم فى مركز الأمر والصدارة والمسئولية . فلما كان من المسلم به إذن أن معرفة المزاج والطبع — وفى كلمة واحدة : الميول — ضرورية أولا ، ويجب أن تسبق دراسة القدرات ؛ فإن بورديل تصنف الميول بطريقة ابتدعتها وطبقتها — كما سنرى — إلى :

ا — ميول باطنة أصيلة tendances profondes : حيث يكون لدينا — إلى جانب المزاج ف ل ق — الذوق الغالب (نحو فرع من الفروع الأربعة الكبرى : الفعل والأفكار والأشخاص والأشياء) ، ثم القدرة على العمل (الإقبال والعمل فى مستوى أدنى ، أو العمل البطىء التقدمى) وأخيراً : استعداد المزاج humeur (نشاط أو خمود ؛ تفاؤل أو تشاؤم ، حيوية .... الخ) .

ب — ميول ذات متعة شخصية Tend. d'intérêt personnel وهى تلك التى تلذ للمرء فيما يعود على شخصه هو ، وتشمل : الحساسية (حساسية بالمعنى الصحيح ، قابلية الانفعال ، الشجاعة ، ضبط النفس ، والغضب ... (ثم ميول تجاه الذات égocentriques (الطموح ، الشراهة ، أو الجشع ، غريزة الإنفاق أو الاقتصاد ، الغرور ، التواضع ، النهم ، الشهوانية) .

حـ — ميول ذات متعة جماعية Tend. d'intérêt collectif التى تلعب دورها خصوصاً عندما يوجد اتصال بالغير ، وتشمل : السلوك (الظاهر والباطن) والميول الغيرية) الحاسة الاجتماعية ، الانتخاب الاجتماعى ، ذوق الحديث ، التمييز والفرز ، والرياء أو النفاق ، والإخلاص ، والأدب ، والمجاملة والذوق ، وروح العدالة ، والطيبة ...) .

ء — ميول ذات متعة مهنية Tend. d'intérêt professionnel وهى الميول التى تتعلق بعد هذا بالعمل والفعل ، وتشمل : ميولا عقلية (الاستطلاع ، الحزم ، المثابرة ، التدبر ، الدقة ، السرعة العقلية ، الاندفاع ، النظام ، المنهج ، التنظيم ، الترتيب العقلى ، العمق ، والرغبة فى التحسن...) ، ثم الذوق الخلقى

(حب العمل ، ومواجهة الصعوبات ، والنضال ، والمغامرة ، والمخاطرة) ؛ ثم أخيراً الميول الخلقية (النظام ، الطاعة ، الاجتهاد فى العمل ، الاعتماد على النفس ، قابلية الإيحاء ، شعور الغيرة ، روح الجماعة ، الرياسة أو السلطة ، روح المسئولية ، الإرادة ، الصلابة والصمود ، الضمير المهنى ، روح الأمر أو الائتمار ، الحكم الذاتى ، قدرة الرياسة ودرجة الشخصية ... إلخ) .

ونلاحظ فيما يتعلق بهذه الميول تجنب أى حكم من أحكام القيمة من شأنه أن يفصل بين محاسن qualités ومساوىء défauts ، إذ الواقع أنه ليس ثمة محاسن أو مساوئ ، بل ميول تختلف قوة وضعفاً — إذا استفيد بها أصبحت مفيدة أو أسيء استعمالها بأن أهملت أو أغفل تفتحها الطبيعى ؛ على عكس ذلك ؛ صارت ضارة أو معطلة . كما يتبين كذلك بوضوح مبلغ الأهمية فى معرفة أساس الميول المختلفة وعلاقاتها بالنسبية لدى كل شخص ، وفى حسن الاستفادة بها وتنميتها فى حدود التوازن الديناميكى المنسجم لشخصيته .

* * *

وبعد المحرك تأتى الأدوات les outils — وتعنى بها القدرات aptitudes وهذه الأخرى يمكن أن تمرن وتهذب ، فإذا لم يمكن إنماؤها حين لاتوجد أو حين تكون قليلة جداً ؛ فإنه يسهل من ناحية أن نتعلم استغلال إمكانيات ما يوجد منها فى أوسع نطاق ممكن — من ناحية — وتعويض ما ينقص منها ، من ناحية أخرى باستغلال القدرات الأخرى التى اذا أخذت فى ذاتها لا يمكن أن تعادلها ، ولكن عملها الأصلى والإضافى (التعويضى) يسمح بالوصول إلى نتائج مماثلة . فمثلا الميل إلى الآلية (الأوتوماتيكية) الذى هو وظيفة حركية يمكن تعويضه بتنظيم وإسراع الحركات (وهى الأخرى وظائف حركية) التى تنضاف اليها الذاكرة الحركية (قدرة عقلية) والمثابرة (ميل عقلى) .

وتنقسم القدرات عند بورديل إلى مجموعتين كبيرتين : قدرات جسمية وفيزيولوجية وحسية ، ثم القدرات العقلية . فالأولى تشمل بوجه عام كل ما هو متعلق بميدان الجسم corps ، مثل : المظهر الجسمى (الهيئة ، الرهبة والإجلال ، القامة ، الوزن ، النظافة ...) ، والصحة (صحة عامة ، سلامة كل من الهيكل العظمى والأجهزة الهضمية والدورية والعصبية ... الخ وحسن تأدية وظائفها ...) القوة ومقاومة التعب ؛ الحواس (النظر : انكساره وامتداده أو اتساعه وحدته وإبصاره

اللونى ، والسمع ، واللمس ، والإحساس الحركى ...الخ) ؛ ثم الوظائف الحركية (الشعور الإيقاعى ، الميل إلى الآلية ، الدقة ، انتظام الحركات وسرعتها ، الخفة الجسمية .... الخ) .

أما القدرات الأخرى فهى المتعلقة بالنفس l'esprit وهى — مأخوذة فى كل اتجاهات تركيبها وجوهرها وخصائصها : الانتباه (دقته ، اطراده وانتظامه ، تركيزه أو انسيابه ، الانتباه البصرى ، والسمعى ... إلخ) ؛ والذاكرة (المباشرة أو البعيدة ، فى الاستدعاء أو التعرف ، المجردة اللفظية أو المادية الحسية ...) ؛ والتخيل (الذاتى أو التوجيهى ، الديناميكى ...) ؛ والذكاء (الإدراك ، الحكم ، الذكاء الإبداعى ، البديهة أو الحدس ، الاستدلال والاستنتاج ، الذكاء العقلى والمنطقى ، والميكانيكى ، والرياضى ... الخ) .

* * *

وخلاصة القول أنه ليس ثمة نموذج أولى للإنسان ، فتلك فكرة خاطئة ترى بورديل أنها تقوم فى أساس كل زيغ وضلال فى فهم حضارتنا الإنسانية ؛ فكرة يجب تحطيمها والتخلص منها . فليس من الضرورى أن يتشابه الناس ، بل — على عكس ذلك — لن يوجد اثنان متشابهان تماما ، ولكن كلا منهما مركب من :

عرض بيولوجى × ميول + قدرات

ولكن طبيعة وتعقيد واتساع كل واحدة من هذه المكونات الثلاث يجعل منا شخصية ذات إمكانيات متعددة يجب تنميتها فى حدود هذه الكثرة والخصب .

فكل دراسة إذن تطمح فى أن تصل إلى معرفة للإنسان من حيث استخدامه المهنى والاجتماعى يجب أن تقيم كبير وزن لكل عناصر هذا المركب دون أن تغفل منها شيئاً ، وإلا كانت النتائج — كما تؤكد بورديل — فاسدة وخاطئة ، فليس هنا مجال لأن نخدع أنفسنا . وإلى أولئك الذين يريدون أن ينسبوا لأنفسهم مهمة تعرف الناس ليقوموا بتوجيههم واختيارهم وتحديد أصلحهم ؛ تتوجه بورديل مطالبة ضرورة الدراسة الواسعة العميقة . وتقول إنه قد حدث أن تخرج فى بعض الهيئات « علماء نفس صناعيون » فى خمسة عشر يوماً أو ثلاثة أسابيع لمجرد أنهم قرءوا كتاباً أو كتباً عامة ، أو قاموا بمشهد فى معمل ، ولكن ماذا نقول فى شخص يسمح لنفسه بأن يحمل لقب طبيب لمجرد تردده شهراً أو بعض شهر على مستشفى ، ومن الذى يثق فيه ليعهد إليه بصحته ؟

وعلى عالم النفس الصناعى الحقيقى إذن أن يعرف ليس فحسب علم النفس العام؛ بل كذلك سيكولوجيا الطفل ، والطب العقلى والتحليل النفسى ، والفيزيولوجيا والبيولوجيا — ولا نقول سيكولوجيا الأجناس وعلم النفس الجنائى التى ليست لها عنده فائدة معينة ، ولكنه مختص فى علم النفس الصناعى ! وعليه فوق هذا أن يكون على صلة دائمة بتطور العلوم ، وأن يعدل دون انقطاع تقدم علمه هو ، بحيث تعطى قيمة تكوينه ضمانا كافياً لأولئك الذين يعهدون إليه بكل ثقتهم .

ولنبحث الآن مع بورديل قيمة السيكوبيولوجيا كعلم تطبيقى — بعد أن تبينا له هذا الأساس العلمى القوى السليم — فنعرض أولا لمناهجه ثم لتطبيقه وفنه . فإن هذا العلم — فى خروجه من المعمل إلى التطبيق العملى الأوسع — يقدم طائفة من المناهج تسمح له بأن يلائم كل الحالات ؛ من أبسطها إلى أكثرها تعقيداً وتركيباً ، وأن يتأدى إلى نفس الدقة والعمق فى أحكامه على الأشخاص الذى يجرى اختبارهم سواء اختبرهم على نحو فردى أو جماعى .

فمن حيث اختبارهم جماعة جماعة ؛ تسمح اختباراته بأن يؤديهما عدد غير محدود من الأشخاص يقومون بها جميعاً فى وقت واحد بعينه . والتحديد فيها لايهم إلا لأجل الإشراف والملاحظة . فيمكن إذن اختبار عشرة أو عشرين أو خمسين أو أكثر مرة واحدة . كما يمكن — حين تدعو الحال فى المصانع الكبرى أو بعض الإدارات الخاصة ؛ حيث العدد كثير جداً — وضع اختبارات أكبر جمعاً واتساعاً يؤديها مئات من الأشخاص تلقى إليهم الأوامر بمكبرات الصوت فى ملاعب رياضية أو ساحات شعبية مثلا ؛ كما فى اختيار متطوعى الجيش أو الأعمال الوطنية العامة الأخرى .

والحق أن المزاج والميول الطبعية والقدرات العقلية إنما تتبين بطريق الاختبارات التحريرية والامتحانات المكتوبة : لتكن رسوما أو تمرينات يجاب عنها بتمرينات خاصة بالقلم أو المداد على الورق ، اختبارات لفظية تستخدم فيها الألفاظ والأرقام أو اختبارات للإنشاء والتعبير فيها نصيب قليل أو كثير . والمهم أن الملاحظة لن تنصب إلا على ضبط حسن فهم الأشخاص للتعليمات الملقاة إليهم ، وعلى القيام الذاتى بمهمة الإجابة دون معونة يطلبونها أو ينقلونها من جيرانهم . فليس من غرض هذه الملاحظة فى أية لحظة أن تدرس سلوك الأشخاص من من وجة نظر موضوعية ؛ فلا خلط إذن بين هذه الدراسة الذاتية وتلك الاختبارات التى تتطلب أكبر موضوعية ممكنة . ومن هنا فإن الأشخاص الذين يشرفون على تنفيذ هذه الاختبارات

وتوقيتها ليسوا هم الذين يصححونها ، وهؤلاء المكلفون بالتصحيح ليسوا هم الذين يناط بهم استخلاص مركب نتائجها .

والاختبارات الموقوتة بزمن tests chronométrés تلعب — لدى أولئك الذين يؤدون الاختبار الجمعى — دورا قد يكون معلوماً من قبل a priori ؛ بأن يحدد لهم منذ البدء الزمن الذى يجب أن تستغرقه إجابة السؤال أو التمرين ، أو بعدياً a posteriori بأن يجرى أثناء العمل قياس الزمن الذى استغرق فى القيام بأداء العمل المطلوب .

وتصحيحات هذه الاختبارات يمكن أن تجرى هى الأخرى فى نطاق واسع من الدرجات ، وفى جماعات المتطوعين للتجنيد التى كنا نتحدث عنها الآن تسمح آلات التسجيل العدادة (الإحصائية) بتطبيق واسع جداً لهذا المنهج ؛ فى امتحانات سيكوبيولوجيا تلحق بامتحانات شهادة البريفيه أو البكالوريا ... الخ وهنا تجد مراعاة قواعد معينة من أهمها : ألا نجمع إلا بين أشخاص فى نفس المستوى الثقافى تقريباً . فمثلا للإدارات المركزية أو المصالح ؛ توضع امتحانات للكتبة ، وأخرى لرؤساء الأقلام ، وأخرى للهيئة العليا ... الخ . فإنه مهما تكن الاختبارات الشخصية هى هى بعينها لعناصر كل من مستويات الثقافات المختلفة ، فإن اختبارات القدرات وبعض الاختبارات الطبيعية العميقة الأخرى لا يمكن الاستفادة بها بطريقة محدودة واحدة ، بل كل مجموعة من الاختبارات يجب أن تكون مركبة وفق الغرض الذى نقصد إليه ؛ الذى هو أكبر معرفة كلية ممكنة بكل فرد .

وربما نظن أن الاختبارات الجمعية هى المتعلقة بالكثرة أو العامة وأن الاختبارات الفردية يجب أن تكون قاصرة على الخاصة أو الصفوة ؛ وليس ذلك حقاً من الناحية العملية فى شىء . والمسألة شكلية بحتة فى التعيين ؛ بجعل شىء من الاعتبارات أكثر لأولئك الذين لم يتعودوا ذلك بحكم مركزهم الاجتماعى ، والحق أن الاختبارات الشخصية التى تلذ لنا مع الصفوة من الناس بصفة خاصة لا تتطلب أى صفة بين الممتحن والممتحن . وعلى العكس من ذلك ؛ اختبارات القدرات الجسمية والقدرات الحسية والوظائف الحركية التى تتعلق فوق هذا بالحرف اليدوية لا يمكن أن تجرى إلا بطريقة فردية شأنها شأن الاختبار الطبى أو الصحى . والحال كذلك فى الكشف عن المجموعة الدموية ؛ حيث يجب على كل شخص أن يقدم نفسه لكى يجرى

له تحليل الدم الذى سوف يحدد نوع مزاجه .

وتنظيم هذه الاختبارات الفردية يمكن أن يعدل . ولما كان هؤلاء هم الذين يلزمهم نسبيا أطول وقت لأدائها ؛ فإن من الممكن محاولة تقليلهم للغاية ، وتكليف الخدمات الطبية بالجزء الأكبر منهم إن لم يكن بمجموعهم وكليتهم . وهذه الاختبارات الفردية تقوم فى معظمها فى قياسات تجرى بواسطة أجهزة معدة خصيصاً لها ؛ منها ما هو شديد التعقيد قوى الحساسية والتسجيل ، ومنها ما هو بسيط كالميزان والمقياس الطولى .

هذه الاختبارات — سواء منها الفردى أو الجمعى — تقول بورديل إنه قبل استخدامها قد ضبطت معاييرها على عدد كاف من الأشخاص ، يسمح بإقامة درجات سلم ؛ على أساس السن أو درجة الثقافة أو أى معيار آخر و بفضل هذه المعايير يمكن أن نصنف بسهولة لدى كل شخص قدرته التى نقيسها ؛ سواء فى قيمتها المطلقة أو بالنسبة لأشخاص آخرين فى نفس سنه أو حالته ... الخ .وتحت زاويه القدرة ذاتها ؛ وفى نفس الوقت فى قيمتها النسبية من حيث القدرات الأخرى للشخص ذاته .

ولحسن ضمان تطبيق هذا المنهج : لاتقاس كل قدرة فى الإنسان باختبار واحد ، بل بعدة اختبارات ، حتى يستبعد ما أمكن عامل الصدفة . فمثلا درجة الذاكرة اللفظية أو التعبيرية mémoire verbale يحددها متوسط مأخوذ من : اختبار الذاكرة اللفظية المباشرة ، واختبار الذاكرة اللفظية البعيدة ، واختبار الذاكرة اللفظية السمعية ، واختبار الذاكرة اللفظية البصرية ، ... الخ . كما أن اختبارات التحليل النفسى الصناعى أحياناً سوف تكشف له عن غامض شخصية الفرد الخفية فى الحالات التى لا يكون لإجاباته وضوح أو دقة يمكن قياسهما ، أو يكون لميوله الباطنية العميقة تعارض أو انحراف لا يسمح بظهورها وجلائها .

فعلى أساس هذا الاختبار الكامل الذى يكشف عن منظور المزاج والشخصية كلها ، والذى لا يغفل قدرة أو ميلا يكون له فى الفرد جوهريته يجب أن يقوم ؛ التوجيه orientation ؛ سواء كان مدرسياً يرمى إلى بحث نوع الدراسة التى تختار للطفل ، أو مهنى وعملى فى درجة أعلى يرمى إلى تحديد الطريق التى يصيب الشخص بسلوكها أكبر نجاح ممكن .

أما فى الاختبار فالمسألة مختلفة تماماً ، وربما كانت عكس ذلك : فهنا

لا نطمح فى أن نعرف الطريق التى نوجه إليها الشخص ، بل فى أن نبين عما إذا كان يصلح أو لا يصلح لأعمال بعينها . ومهمة عالم النفس هنا مختلفة تماماً . فعليه أن يبدأ إذن بدراسة هذه الأعمال والمهن والوظائف ليكون منها فى مجموعها تخطيطاً عاما .

وإليك بعد هذا فى لوحة تخطيطية نموذجاً لهذه الخطة التفصيلية كما تجرى به بورديل هذه الاختبارات .

معامل علم النفس التطبيقى

بحث رقم ..... ليون بورديل

رقم المهنة (تبعاً للتصنيف الدولى) .

اسم المهنة موضوع الدرس

المهنة : تحديد :

تعريف المهنة ، تخطيط لمجموعها
عدد وجهاتها المختلفة وتتابعها

الإجراء	الحد الأدنى	الحد الأعلى
الكيان الجسمى		
(المكانى أو المحلى)		
الحرارة :		
التهوية :		
الرطوبة :		
الإضاءة :		
— درجتها ومقدارها :		
— تنوعها وتغيرها :		
الاستعداد الآلى :		
الطبيعة والمادة :		
درجة الوجدة أو الكثرة :		
درجة الضبط والدقة :		

الكيان الأدبى :

التعاون :

— مع من هم أعلى :

— مع النظراء والأنداد :

— مع المرءوسين :

الصلات بأشخاص خارجيين :

القدرات المطلوبة : أدنى أعلى

قدرات جسمية :

الجنس :

السن :

الوزن :

القامة :

الهيئة :

الحالة الصحية : إطلاقاً نسبيا

البيانات الطبية المقابلة :

القوة : أدنى أعلى

مقاومة التعب :

الوظائف الحركية :

الروابط الحسية الحركية :

الرابطة البصرية الحركية :

الرابطة الحسية الحركية :

الرابطة السمعية الحركية :

المهارة اليدوية :

قدرات حسية : أدنى أعلى

البصر :

الانكسار :

المجال البصرى :

امتداده :

حدته :

الإبصار اللونى :

السمع :

الحدة السمعية :

الشم :

الذوق :

اللمس :

الإحساس بالتماس :

الإحساس بالحار والبارد:

الإحساس بالألم :

الإحساس الحركى :

الحساسية العضلية بالحركة :

الحساسية العضلية بالمقاومة :

قدرات طبعية (منطبعة) :

قدرات ذات متعة فردية:

المزاج (ف ل ق) :

الحساسية :

(سرعة التأثر ، الجمود ، الخوف ، الهدوء ، الشجاعة ، الغضب)

الأذواق والاتجاهات : أدنى أعلى

فيما يتعلق بالأفكار :

فيما يتعلق بالأشخاص :

فيما يتصل بالأشياء :

فيما يتصل بالفعل :

ميول نحو الذات :

(الغرور والفخر ، الشراهة والجشع ، الاقتصاد ، الحقد ، النهم ، الشهوانية ، الشح ، الطموح)

قدرات ذات متعة جماعية :

السلوك :

انبساطى أو انطوائى :

المزاج :

متفائل أو متشائم :

ميول غيرية (نحو الغير) :

الشعور الاجتماعى ، حسن العشرة ، الظرف ، الرقة
الأدب ، التسامح ، عرفان الجميل ، روح العدالة
الإخلاص ، حسن التمييز والاختيار ، التحفظ ،
الأمانة ، الطيبة . . .)

قدرات عقلية :

ذكاء عام :

المستوى العقلى :

متوسط الذكاء :

الانتباه :

الانتباه العام :

مستواه :

تتابعه وتقاطره :

مقاومته للتعب :

دقته :

انتظامه واطراده :

طبيعة الانتباه :

(مركز ، مشتت ، يقظ . .)

نوع الانتباه :

بصرى ، سمعى ، لفظى ، حسى حركى . . .

الذاكرة :

الذاكرة عموماً :

(مباشرة أو بعيدة)

طبيعة الذاكرة :

(استرجاع أو تعرف . . .)

نوع الذاكرة :

(ذاكرة حسية، صور رياضية هندسية، منطقية
أرقام حسابية — كلمات لغوية . . .) .

عدم تفكك التذكر :

سرعة المران :

المبدئى :

النهائى :

أدنى أعلى

التخيل :

(مطلق أو موجه، ثابت أو متحرك ، بصرى ، سمعى . لفظى . . .)

التصور المكانى :

الذكاء :

طبيعة الذكاء :

(فى الفهم ، والنقد ، والإبداع . . .) :

نوع الذكاء :

(لفظى . منطق . عددى . آلى . حسى...) :

الاستدلال :

(الحدس البديهى . القياس . . .) :

القدرات الفنية الخاصة :

(تختلف تبعاً لكل مهنة . . . مثل : قدرة الرسم ، والإيقاع ، والتسلق ، والاحتفاظ بالتوازن . . .) :

قدرات طبعية :

قدرات ذات متعة مهنية :

ميول عقلية :

(الثبات . الدقة الصبر . المثابرة . النظام اتباع منهج . التعاون . التنظيم. الإبداع...)

أذواق خلقية :

حب العمل . حب المصاعب . حب الكفاح . المغامرة . المخاطرة . . .)

ميول خلقية :

الضمير المهنى :

الطاعة السالبة :

(غريزة المحاكاة ، قابلية الإيحاء . . .) :

الإرادة الموجهة :

(الشعور بالتنافس، الشروع فى التفاصيل . الاقتداء)

الإرادة الذاتية :

(الشروع التلقائى . الشعور بالمسئوليات) .

الشعور بالسيطرة والرياسة :

القدرة على العمل : (ا ، ب ، ح) :

ويلحق بهذا النموذج للاختبار المهنى صفحة رابعة تتعلق بالعامل أو الموظف ذاته : إعداده ومدة مرانه ، ومغامراته المهنيه وأمراض المهنة وحوادثها ، ومزاياه الشخصية والاجتماعية ، وما ينتظر له من تحسن ..

وفى كتاب بورديل نماذج و« فيشات » أخرى كثيرة ، يجرى تطبيقها فى اختبار الموظفين والعمال والمجندين للخدمة العسكرية يمكن الرجوع إليها واقتباسها .

ونرجو أن يتاح لنا فى مرة مقبلة أن نتناول تصنيف الميول والقدرات لدى بورديل فى مقارنته بتصنيف غيرها ممن سبقها فى هذا البحث .

كمال دسوقى